

الفكر العلمي العربي

في شخص العباس بن فرناس

حكيم الأندلس
الأستاذ سعيد السويدي
عضو مجمع بعلمي العراقة

ومناظرات ومجادلات علمية ، وما يلقيه علماء الأندلس
من طريف ما أخذوه من المشاركة .

ويقصد المجالس الأدبية ، ويستمع الى شيوخها
استماع متبصر ، يريد أن يستفيد مما يجري في
الحلقات والمجالس ، مما كان يلقيه شعراء الأندلس
وأدباؤها من جميل النظم والنثر ، ومن غريب
الأخبار واللغة التي أخذوها من أهل المشرق .

وكان يتردد الى اصحاب الفنون الرفيعة ،
فيستمع الى الاصوات التي وضموها ، والآلات
الموسيقية التي يوتعون عليها .

درس كتب الطب ، وخصائص الامراض
واعراضها ، وطرق الوقاية منها ، وملاج من أصيب
بها .

درس خصائص الاحجار والامشاب والنباتات ،
ووقف على ما تفيد في المعالجة ، وكان يقصد الاطباء
والصيادلة ويناقشهم فيما ظهر له من اطلعه وتجاربه
في هذا العلم الجليل ، الذي يحفظ صحة المجتمع ،
ويقيه شر الاسراف .

ابو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكروني
الاموي بالولاء - احد اساطين العلم والادب والفن في
الأندلس .

لم نقف على ولادة هذا العالم الجليل ، والذين
ترجموا له ذكروا : انه توفي سنة 274 هـ (884 م)
وانه اربى على الثمانين ، فتكون ولادته في آخر
القرن الثاني للهجرة (حوالي سنة 194 هـ)

اصله من برارة « تاكرونا » ونشا في قرطبة ،
عاصمة الدولة الاموية ، وهي - اذ ذاك - مركز العلم
والادب والفن في أوروبا ، يشدون اليها الرحال ،
ويقتبسون من معارف العرب وفنونهم وصناعاتهم ،
التي كانت تبهر عقولهم ، وتأخذ بالبابهم .

في هذا المحيط الزاهي بالعلوم والمعارف ، شب
ابن فرناس ، وكان ذكي الفؤاد ، سريع الحفظ ، دقيق
النظر .

تعلم القرآن الكريم ، ومبادئ الدين الحنيف
في الكتابيب التي كانت كثيرة في قرطبة ، ثم اخذ
يرتاد الحلقات العلمية ، التي كانت تعقد في جامع
قرطبة ، ويستمع الى ما يجري فيها من محاضرات

وابو القاسم لم يكن من هذا الرمييل القانع
بالسهل المبسط ، بل كان يدقق ما يدرسه ، ويحقق
ما يفهمه ، ويتدبر ما يقرأه ، ويطبق عمليا ما يحتاج
الى العمل ، ليتأكد صحة المدعى ، ويستفيد مما اخذ ،
لهو احد العلماء العاملين ، الذين وضعوا اساس
الحضارة العلمية والمطوية في الاندلس : سهلوا
العويص ، وشرحوا الفاضل ، ويسروا المسر ،
وابتكروا آلات علمية ومعارف عملية .

فابو القاسم من العلماء الذين علموا وعملوا :
عكف على تحقيق القضايا التي درسها ، وهيا لنفسه
ما يحتاجه عمله من آلات دقيقة ، وادوات مختلفة
والاجهزة العلمية - التي ساعدته على اظهار علومه
ومعارفه عمليا ، ورسم طريقة مثلى لاهل بلاده . وهي
محاولة تطبيق العلم على العمل ، بحيث يحققون
ما يدرسونه ، ويصنعون لانفسهم الآلات والادوات
العلمية التي يحتاجونها من غير ان يتكلموا على غيرهم ،
وبدا يحق لهم ان يكونوا علماء عاملين ، يسمى اليهم ،
ويؤخذ عنهم ، ويعتز بأرائهم المزيده بالعمل بعد العلم .

وعلى هذا فابو القاسم فاق اهل عصره في
طريقته العملية ، فبرز في علوم ومعارف اوجدها من
تجاربه في التوليد والاختراع ثم الابتكار ، ومن
ذلك :

1 - على صناعة الكيمياء ، وقام بتجارب
وفحوص مختلفة ، واهتدى الى حقائق ، لم تكن
معروفة عند الاندلسيين ، منها : انه استنبط صناعة
الزجاج من نوع من الحجارة ، وبدا يصر للاندلسيين
صناعته من مادة بخسة الثمن ، سهلة التشاؤل ،
فانتشرت صناعته في الاندلس ، وتفوقوا فيها .

2 - عانى علم الفلك والتنجيم ، راتب النجوم
والكواكب في افلاكها ومداراتها ، وصنع الآلات التي
تساعد على الرصد . وما صنعه الآلة الكروية
« بلات الحلق » ورنعها الى الامير محمد بن عبد

واشتهر بين اطباء عصره ، فانخذ الامراء
الامويون (1) طبيا خاصا لمعالجة الاسرة الحاكمة ،
يشرف على صحتهم وطعامهم ، ويورثهم الى انجح
الطرق في معالجة مرضاهم .

درس الفلسفة والمنطق والنجوم والعلوم
الروحانية ، وجمع الكتب التي تبحث عنها ، والتي
صعب الحصول عليها ، وقرأها قراءة مدقق ، واستفاد
منها والاد قومه .

اشغل بالنحو ودقائق الامراب ، واطنح على
آراء النحاة في التعليل وصار من نهاية عصره في
الاندلس ، يؤخذ عنه وذكره الربيدي في الطبقة
الثالثة من نهاية الاندلس ، وقال عنه : كان متصرفا
في ضروب من الاعراب .

كان يقصد اهل الصناعات الرفيعة ، ويدقق
بأعمالهم وصناعاتهم ، وفنونهم الدقيقة ، ويسألهم عن
سر ما لم يهتد الى معرفته بنفسه ، فاقتبس منهم
صناعات ومعارف ساعدته على ابراز ما علمه ، مما
يحتاج الى عمل آلات عملية .

وهكذا صار ابو القاسم العباس بن فرناس
متضلعا بعدة علوم وفنون وصناعات ، واداب مختلفة ،
فبرز على علماء زمانه ، بما انفرد به من معارف
وعلوم لم تنهيا لغيره من اهل الاندلس ، حتى انهم
اطلقوا عليه « حكيم الاندلس »

- 2 -

كثير هم الذين قنعوا من العلم بالامور البسيطة ،
التي يسهل لهمها . وبالنظريات المجردة ينقلونها عن
غيرهم ، ولم يكلفوا انفسهم عناء البحث والتدقيق
لنما درسوه ، او تحقيق ما علموه ، ولم يحاولوا
تطبيق العلم على العمل ، ليتأكدوا من صحة ما نقل
اليهم ، او اخذوه عن غيرهم .

(1) اصل ابن فرناس بثلاثة امراء - وكان مقربا اليهم وهم على التوالي :

1 - الحكم بن هشام 188 - 206 هـ = 803 - 821 م

2 - عبد الرحمن بن الحكم 206 - 238 هـ = 821 - 852 م

3 - محمد بن عبد الرحمن 238 - 273 هـ = 852 - 886 م

الرحمن الاموي ، وكتب عليها ابياتا من نظمه تناسب الآلة ، وما تقوم به من عمل :

قد تم ما حملتني من آلة
اهيا الفلاسفة الجهابذ دوني

لو كان بطليموس الهم صنعة
لم يشتغل بجداول القانسون

فاذا راته الشمس في آفاقها
بعثت اليه بنورها المحزون

ومنازل القمر التي حجبت معا
دون الميون بكل طالع حين

يبدون فيها بالنهار - كما بدت
في الليل في ظلماتهن الجورن

3 - عمل الميقاتة لمعرفة الاوقات - وهي تقوم مقام الساعة في يومنا هذا ، ورفعها الى الامير محمد بن عبد الرحمن ، وكتب عليها من نظمه :

الا انسي للدين . خبير اداة
اذا غاب عنكم وقت كل صلاة

ولم تر شمس بالنهار ، ولم تنر
كواكب ليل ، حالك الفللمات

بيمن امام المسلمين « محمد »
تجلت من الاوقات كل صلاة

4 - اتخذ في داره هيئة السماء ، وصور فيها الشمس والقمر ، والكواكب ومداراتها ، والغيوم والرعد والبرق ، فكان من اعاجيب الصنعة والابتكار .
5 - انه اول من طار وحلق في الهواء - كما تطير الطيور وهذا من الاختراعات المدهشة التي قام بها « حكيم الاندلس » .

قام بمدة تجارب تمهيدية ، درس بها ثقل الاجسام ، ومقاومة الهواء لها ، وتأثير ضغط الهواء

عليها اذا ما طارت في الفضاء ، وكان له خير مسامد على هذا تفوقه في العلوم الطبيعية والرياضية والكيمياء ، فاطلع على خواص الاجسام ، واجتمع لديه من المعلومات ، ما حمله على ان يجرب الطيران بنفسه .

كسا نفسه بريش اتخذه من سرقه الحرير (1) ، اثنتائه وقوته ، وهو يتناسب مع ثقل جسمه ، وصنع له جناحين - من الحرير ايضا - يحملان جسمه اذا ما حركهما في الفضاء ، وبعد ان تم له كل ما يحتاج اليه هذا العمل الخطير ، وتأكد ان باستطاعته اذا ما حرك الجناحين ، فانهما سيحملانه ويطيرون في الفضاء ، - كما تطير الطيور - ويسهل عليه التنقل بهما اينما شاء .

اعلن للناس انه يريد ان يطير في الجو ، وان طيرانه سيكون من الرصافة - ظاهر مدينة قرطبة - فاجتمع الناس فيها ليشاهدوا البطل يتهادى في سماء قرطبة .

صعد ابو القاسم فوق مرتفع ، وحرك جناحيه ، وقلز في الجو ، وطار في الفضاء مسافة بعيدة عن العل الذي وقف فوقه ، والناس ينظرون اليه بدهشة واعجاب ، يهللون له ، وشامروهم يقول :

يطم (2) على المنقاء في طيرانها
اذا ما كسا جسمانه ربح قشقم

ولما هم بالنزول الى الارض ، تاذى في ظهره ، وفاته ان الطائر انما يقع على زمكه (ذيله) ، ولم يكن يعلم موقع الذنب في الجسم انما هبوطه الى الارض ، فاصيب بما اصيب من اذى .

هذه اول عملية جريئة يقوم بها حكيم اندلسي ، يجرب الطيران بنفسه ، وينجح بعمله الى حد ما ، وهذا النجاح الذي سجله حكيم الاندلس ، دفع الناس

(1) شقق الحرير الابيض والواحدة سرقه

(2) طم : فلا ، غلب ، والقشقم : المسن من النور .

بالإقدام على محاولة الطيران ، فكان عمله نواة طيبة ،
نمت وازدهرت ثم انثرت .

وصف مجالس الانس والطرب ، وما فى تصورهم من
جنات وميون ، وزروع ومقام كريم ، وملاعب
وكواهب ، ومصادهم ومطاردهم - وكان يرافقهم بها .

رافق الامير محمد بن عبد الرحمن ، لما سار الى
اخمد ثورة اهل « طليطلة » مع حلفائهم النصارى
سنة 240 هـ (854 م) فوقع فيهم الامير ، واخمد
الثورة بمنف وشدة وشنت الثائرين . فقال ابن
فرناس يصف هذه الواقعة :

ومؤتلف الاصوات مختلف الزحف
لهوم الغلا ، جبل القبال ملتف

اذا اومضت فيه السوارم خلتها
بروقا تزوى فى الفمام وتستخفى

كان ذرى الاملام فى ميلانها
قراير فى يم ، مجزن من القذف

بكى جبلا وادي سليط فاصولا
على النفر العبدان ، والمعصبة الغلف

يقول ابن بوليس لموسى - وقد اتى -
ارى الموت قدامى وتحتى ومن خلفى

قتلت لهم الفا والفا ومثلها
والفا والفا بعد الف الى الف

سوى من طواه النهر فى مستحاله
فأفرق فيه ، او تهدهد فى جرف

لقد نعمت فيه غزاة نسورنا
وسمعت الدقات قصفا على نصف

ووصف ما آلت اليه طليطلة من الدمار
والتخريب ، وهدم الامير قنظرتها الشهيرة فقال :

(1) كان اماما فى اللغة والادب ، وخطه يضرب به المثل فى الجودة ، لا يكاد يفرق بينه وبين خط « ابن
مقله » سافر فى طلب العلم ، واخذ من مدة شيوخ وخاطب الامراب فى بلاد ربيعة ومضر ،
وصنف كتابه المشهور « الصحاح » فى اللغة واستقر فى نيسابور على التدريس والتأليف ، وتعليم
الخط ، وكتابة الصحاف ، وله عدة كتب .

فكر فى الطيران ، واعتقد ان فى مقدور الانسان ان يطير اذا ما اتخذ له جناحين ، كجناحي
الطير ، ولكنه لم يقم بدراسات تمهيدية يجرب بها ما افترضه - كما فعل حكيم الاندلس - فانه
صعد سطح الجامع القديم فى نيسابور وقال : ايها الناس انى عملت فى الدنيا ما لم اسبق اليه ،
فساعمل للاخرة امرا لم اسبق اليه ، وضم الى جنبه مصراي باب ، وثابطهما بحبل ، وطسار فى
الفضاء ، - ولم يكن موثقا بعمله ، فان مصراي الباب لم يحملانه فى الفضاء ، بل سقطا به على
الارض ومات . فكان عمله هذا دراسة سطحية لئلا يكبر .

الجميلة التي فنتت الكثير من شعرائها ، فابدموا في وصفها .

ومما قاله في صفة روضة :

ترى وردها والاقحوان كأنه
بها شفة ليماء ضاحكها نضر

وقد ابدع في وصف اشجار النخيل الباسقات
- الاشجار المباركة التي رافقت العربي اينما حل
واستقر - نقلوها الى الاندلس وزينوا بها حدائقهم
وبساتينهم :

حنايا كأمثال الالهة ركبت

على عمد ، تمتد في جوهر البدر

كان من الياقوت قبست رؤوسها
على كل مسنون مقيض من السدر

ترى الباسقات الناشرات فروعا
موائس فيها ، من مداولة الوقر

كان صناعا صاغ بين فصولها
من الذهب البادي، عراجين من نخل

نشت لؤلؤا ، لم استحالت زمردا
بؤول الى العقيان قبل جنى البسر

ووصف الصحراء ووحشتها ، وترامى اطرافها
فقال :

موسومة بالبعد ، تحسب سهلا
لقى السماء بحولها اطنابا

فكانها دار تقاذف صحنها
لم يجعل الباني لها ابوابا

ومن جميل قوله في وصف السراب :

يفلقن لجة آله ، فامامها
حاد ، وآخر خلفها لم يلحق

فكان ذا موسى ، وذلك بالره
فرهون ، الا انه لم يفرق

ومن تشبيهاته الجميلة ما قاله في وصف كوز :

ومعجم لم يبق في جثمانه
الا حشاشة مهجة لم تزهرق

اضحت طليطلة معطلة
من انها ، في قبضة الصقر

تركت بلا اهل تؤهلها
مهجورة الاكثاف ، كالتبر

ما كان يبقى الله قنطرة
نصبت لحمل كتاب الكفر

وله قصيدة يهنيء بها الامير محمد بمودته من
طليطلة ، موافقا عيد الاضحى المبارك اولها :

ان القفول الذي اودى بعيدين الخ . .

ولما جدد الامير محمد قصور الرصافة ، التي كان
قد شيدها جده « صقر قريش » عبد الرحمن
الداخل ، وزينها بجميل الزخارف والكتابات وجعلها
من اجمل القصور بهاء ورونقا ، فقال ابن فرانس فيها:

كان تصور الارض بعد تمامه
كثير له اخفى شخوصا من الدر

فاعجب من اقتائها الفرر التي
يقيم بهن البرد في دعوة الحر

وتنتشر الابصار منها الى مدى
التنزه بالاطيار والوحش والزهر

كان الذي يخفي الحديث بنجوها
على اخفض الاصوات يشدو على وتر

وكما كان يتحف الامراء بالالات الدقيقة الصنع،
كان يتحفهم بهدايا طريفة نفيسة ، نظم اربعة ابيات،
وكتبها بالذهب على تفاعلة ، ورفعها الى الامير محمد،
اولها :

محمد اكرم مستخلف
من خلفاء الله في الارض

فسر الامير ، وامر ان يفي بها ، وكانا ابا
القاسم من كل بيت بالف دينار ، وقال : لو زادنا
لردنساء .

كان ابو القاسم مرهف الحس ، واسع الخيال،
يستهو به جمال الطبيعة ، وسحرها الخلاب ، دقيق
الوصف ، وكيف لا يصف مباحج الاندلس ، ومناظرها

حنيت على كشحه من برحائه
مضان : فهو لموتق لم يطلق

حلت عمامة راسه فتصومت
منا مفارقه ، بمثل الرنبق

وله شعر رقيق يستهوي القلوب ، كقوله :

فبتنا وانواع النسيم ابتدالنا
ولا غير عينيها ، وعيني كالي

الى ان بدا وجه الصباح كانه
جبين فتاة ، لاح بين حجال

وقوله متفزلا :

واحور ما يعني الميون من الفسق
له كذب في الجدد ، احلى من الصدق

وللحسن في خديه شمس مقيمة
وبدر كمال لا يحور الى محق

وما الميش الامتة الهجر والهوى
باحور ، ما يبقى هواه ، وما يبقى

- 4 -

كان ابن فرناس موسيقيا مبدعا ، ينظم الشعر ،
ويضع اللحن ، ويفضي به ، ويوقع على الصوت ،
واشتهر بما وضعه من قطع جميلة كانت من نظمه
وتوقيعه ، وكان امراء قرطبة يزيتون مجالسهم
بانشاده وعزفه ، واكثر الامراء حبا له هو الامير محمد
ابن عبد الرحمن ، فناه يوما صوتا من نظمه وتلحينه
اوله :

الجهل ليل ليس فيه نور
والعلم فجر نوره مشهور

فاجزل له العطشاء .

ومما يدلنا على سرعة بديته في نظم الشعر ،
ورضع الصوت المناسب وحسن توقيعه على العود ،
ما رواه المرزباني (في طبقات اللغويين والنحويين)
فقال :

(1) مدينة غربي الاندلس

كان محمود بن ابي جميل غلاما جوادا - وكان
ماملا في اخريات ايام الامير عبد الرحمن بن الحكم
- فعمل قبة ادم - بلغت النفقة فيها ونى وطائها
خمسمائة دينار - فاكملت غريبها على وادي لكة (1) ،
وصنع ضيفا ، جمع له اصناف الكورة ، ووافق ذلك
اطلاع « عبد الملك بن جهور بن يوسف بن بخت »
ضياحه « بشدونة » فاستجلبه محمود مع بياض الكورة ،
فشهد وشهدوا ، فلما تقضى طعامهم ، وصاروا الى
المؤانسة - ومندهم احد بني زرياب - طلع عليهم
عباس بن فرناس زائرا لمحمود ، فقام محمود اليه
والتزمه ، وسر جميعهم بوروده ، ثم عرض عليه
الطعام ، فطمع ، ثم صار الى المؤانسة ، ودفع ابن
زرياب يغني :

ولو لم يشقني الظامنون لشاقتني
حمام تدامت في الديار وقوع

تدامين فاستبكيين من كان ذا هوى
نوائح ما تجري لهن دموع

فاستمدادوا الصوت اصجابا ، فاعاده .

فلما تقضى فناه ابن زرياب ، مد العباس يده الى
العود ، فاخذته وغنى البيتين ، ووصلهما من عنده
بديهة فقال :

شددت بمحمود يدا حين خانها
زمان لاسباب الرجاء قطوع

بنى - لسامي الجود والمجد - قبة
اليها جميع الاجودين ركوع

وكان محمود جوادا ، فقال له : يا ابا القاسم ،
امر ما يحضرنني من مالي القبة وهي لك - بما فيها من
كسوتي هذه - وتكون في ضياقتك بقية يومنا ،
ودعا اليه بكسوة فلبسها ، ودفع اليه كسوته ، وكانوا
يومهم كذلك ..

هذه القصة الطريفة عن الفنان ابن فرناس ،
تطلعنا على ما كان عليه من النظم الذي يناسب

المقام ، وانه كان يضع له الصوت ، ويفني بما يجب
البرزين في الفناء ، بل يفوقهم بذلك

- 5 -

هذا التفوق في الموسيقى والإيقاع ، ساعده على
حل اصطلاحات كتاب العروض للخليل بن احمد
الفراهيدي (100 - 170 هـ = 718 - 786 م) احد
مفاخر العرب والإسلام .

ذكر المؤرخون : لما ادخل الى الاندلس كتاب
العروض ، للخليل بن احمد الفراهيدي وصار الى
الامير عبد الرحمن بن الحكم ، عرضه على علماء قرطبة
وادبائها ليوضحوه له ، فمعجزوا عن ذلك ، وصار
الكتاب مما يتلوه به في قصر الامير ، حتى ان بعض
جوارى القصر كان يقول لبعض : صبر الله عقلك ،
كعقل الذي ملا كتابه من : مما ومما . فبلغ الخبر ابا
القاسم بن فرناس ، فتقدم الى الامير ، وطلب اليه
اخراج الكتاب اليه ، ففعل ، ولما قراه ابن فرناس
وتدبره ، علم انه في علم العروض ، العلم الذي
ابتكره الفراهيدي ، وضبط به بحور الشعر العربي ،
فكف ابو القاسم فوامضه ، وشرحه لقومه ، فسئل
عليهم دراسة هذا الفن الجميل والاستفادة منه .

فنولا برامته في الموسيقى والنغم ، وشعوره
المرهف ، وتبصره بالفريب ، واطلاعه الواسع على
دقائق هذا الفن - لما سهل عليه حل رموز الكتاب ،
وتبسيطه .

- 6 -

حكيم الاندلس ابن فرناس ، كان من عباقرة
عصره في العلوم ، والمصارف الدقيقة ، والآداب
الرفيعة ، والفنون الجميلة .

عانى صناعة الطب ، فكان من اطباء زمانه ،
درس المنطق والفلسفة وعلوم الحكمة وصار من اعلامها ،
عكف على التجارب في الكيمياء والعلوم الطبيعية
واهتدى الى امور خفيت على غيره ، متضلعا بعلم
الفلك والنجوم والرياضيات ، وجاء بما ادهش
قومه - وكان مع هذا كله - اديبا شاعرا نحويا لغويا ،
يتقن وضع الالحن ، ويحسن الإيقاع على آلات الطرب ،
ويطير في الفضاء ، محالقا في جو الاندلس ، ذلك
لانه كان بعمله وفنه ، فوق ما عليه قومه ، فخلق في
العلم والعمل .

رحم الله ابا القاسم « حكيم الاندلس » فقد كان
من اعلام نوابغ الاسلام ، يفاخرون بعلمه وادبه وفنه .

اهم المصادر التي عولنا عليها في هذا البحث :

- بغية الملتبس - للضبي
- المغرب في حلى المغرب - نشره شوقي ضيف .
- جدوة المقتبس - للحميدي .
- التشبيهات من اشعار اهل الاندلس - الكتاني .
- نفع الطيب - المقري .
- الحلل السندسية - ارسلان
- معجم الادباء - ياقوت
- يتيمة الدهر - للثعالبي .
- طبقات اللغويين والنحويين - الزبيدي .
- وفيات الاميان - ابن خلكان
- بغية الوصاة - السيوطي
- شذرات الذهب - لابن العماد
- مقال في العدد 22 من مجلة العربي للاستاذ عثمان .
- وغیرها من المصادر ..